يقول هوبز:

«فيما يتعلق بأفكار الإنسان، سأنظر فيها بداية كلاً على انفراد، وبعد ذلك في تتابعها أو في ترابطها الواحدة مع الأخرى. إن كل فكرة منفردة تمثل مظهرا لصفة ما أو عرضا آخر لجسم يقع خارجنا، وهذا ما يسمى عادة موضوعا. وهذا الموضوع يؤثر في العيون والآذان والأعضاء الأخرى من جسم الإنسان، ويُنْتَجُ بتنوع التأثير تنوُّعا في المظاهر.

وفي أصل الأفكار جميعا يكمن ما نسميه الحس (ذلك أنه لا يوجد تصوُّرٌ في عقل الإنسان لم تولده أساسا، كليا أو جزئيا، أعضاء الحواس). وكل الأفكار الأخرى مشتقَّةٌ من ذلك الأصل.

إن معرفة العلة الطبيعية للحس ليست ضرورية من أجل غرضنا الحاضر، وقد سبق وكتبت عنها بالتفصيل في موضع أخر. ومع ذلك، ولكي أوفّي كل جانب حقه في منهجي الحالي، سأعرض ذلك هنا باختصار.

إن علة الحس هي الجسم الخارجي، أو الموضوع، الذي يضغط على العضو المناسب لكل حس، إما مباشرة كما في الذوق واللمس، أو بالواسطة كما في البصر والسمع والشم. وبواسطة الأعصاب وألياف الجسم وأنسجته الأخرى، يصل هذا الضغط إلى الدماغ والقلب، حيث يُحْدِثُ مقاومة أو ضغطا مضادّاً أو جهدا من القلب ليحرر نفسه: وبما أن هذا الجهد موجَّهٌ محو الخارج، فهو يظهر كشيء خارجي. هذا المظهر أو الوهم هو ما يسميه البشر الحس، وهو ضوء أو لون اتَّخذَ شكلا بالنسبة للعين، وصوت بالنسبة إلى الأذن، ورائحة بالنسبة إلى الأنف، ومذاق بالنسبة إلى اللسان والحلق، وبالنسبة إلى باقي الجسم هو حرارة وبرودة وخشونة ونعومة وما إلى ذلك من صفات أخرى نميّزها بالإحساس. كل هذه الصفات التي تسمّى حسيَّة ليست في الموضوع الذي تسبِّبها إلا حركات عديدة ومتنوعة للمادة، تضغط هذه الأخيرة بواسطتها على أعضائنا بطرق مختلفة. وليست فينا أيضا، نحن الذين نتلقّى هذا الضغط، اللهم بعض الحركات المتنوعة (فالحركة لا تنتج الحركة) ولكن مظهرها بالنسبة إلينا هو خيال، في اليقظة كما في الحلم. وكما أن الضغط على العين أو حكَّها أو لطمها يجعلنا نتوهم ضوء، والضغط على الأذن ينتِجُ ضجَّةً، كذلك، فإن الأجسام التي نراها أو نسمعها تُنْتِجُ الشيء نفسه بفعلها القوي وإن لم يكن ملحوظا. ذلك أنه لو كانت تلك الألوان والأصوات في الأجسام أو في الموضوعات التي تسببها، لما أمكن فصلها عنها، كما نراها في المرايا زفي الأصداء بواسطة الانعكاس، حيث نعرف أن الشيء الذي نراه هو في مكان، ومظهره في مكان آخر. ورغم أن الموضوع الحقيقي ذاته يبدو، على مسافة معيّنة، مكسواً بالوهم الذي يولّده فينا، إلا أن الموضوع شيء والصورة أو الوهم شيء آخر. إذا ليس الحس في كل الحالات إلا وهما أصيلا سببه (كما قلت) الضغط، أي حركة الأشياء الخارجية، على عيوننا وآذاننا وأعضائنا الأخرى المخصصة لذلك.»

المصدر: توماس هوبز، **اللفياثان: الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة**، ترجمة ديانا حرب وبشرى صعب، مراجعة وتقديم رضوان السيد، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) ودار الفارابي، 2011، ص. 24-25.